

## قَبَسٌ مِنْ نُورٍ



## حين تكلم الأسير

■ أحمد باقر الطويل

قد يبدو الأسير أضعف الناس في ساحة الأحداث؛ فقد سلبت حريته، وأصبح مصيره بيد غيره، فلا يتوقع أحد أن يبدأ منه تغيير أو أن يصنع تاريخاً. لكن سنن الله كثيرًا ما تكشف أن القوة ليست فيما يراه الناس، بل فيما يودعه الله في عبادِه من رسالة.

وهكذا كان الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام بعد كربلاء. خرج من أرض الطف لا يحمل سيفًا، ولا يقود جيشًا، بل خرج أسيرًا، ومع ذلك بدأت على يديه مرحلة جديدة من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، انتقلت فيها الرسالة من ميدان الدم إلى ميدان الوعي، ومن صوت السيف إلى صوت الحقيقة.

بعد عاشوراء بدا المشهد وكأن كل شيء قد انتهى. استشهد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وأحرقت الخيام، وشببت النساء والأطفال، وأصبح أهل البيت أسرى. ولو نظر الإنسان إلى ذلك بعين السياسة لقال إن السلطة انتصرت بكل أدواتها: السلاح، والإعلام، والهيبة.

لكن الخطر الأكبر لم يكن في القتل، بل في الرواية التي سكتب بعدها. فلو ترك تفسير كربلاء للمتصرين، لتحولت أعظم تضحية إلى حادثة يُبرز فيها الظلم ويُتهم فيها أصحاب الحق.

لهذا شاء الله أن يبقى الإمام زين العابدين عليه السلام، لا ليواصل القتال بالسيف، بل ليحفظ معنى ذلك الدم، ويمنع الحقيقة من الضياع. لقد خرج الإمام من كربلاء يحمل ألم الفاجعة كلها، لكنه أدرك أن التكليف تغير ولم يتغير الهدف. فإذا كان الإمام الحسين عليه السلام قد حفظ الدين بدمه، فإن على الإمام السجاد عليه السلام أن يحفظ ذلك الدم من التحريف والنسيان.

ومنذ اللحظة الأولى حوّل طريق السبي، الذي أريد له أن يكون طريق إذلال، إلى طريق يقظة. فالسلطة أرادت أن تعرض الأسرى بوصفهم خارجين على سلطانها، أما الإمام فكان يعيد تعريفهم للأمة بأنهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله. ولهذا، عندما سحنت له الفرصة، لم يبدأ بالشكوى من الأسر، بل بدأ بالتعريف بنفسه، قائلاً: «أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب...».

لم يكن يطلب تعاطف الناس، وإنما كان يعيد وصل الأمة برسولها، بعد أن حاولت الدعاية السياسية أن تفصلها عن أهل بيته.

ومنذ تلك اللحظة بدأ سؤال جديد يولد في عقول الناس: من هؤلاء الذين قُتلوا وشببت نسائهم؟ ولماذا انتهى بهم الأمر إلى هذا المصير؟ وحين تبدأ الأمة بطرح هذا السؤال، تكون الحقيقة قد بدأت تستعيد طريقها.

لم يسقط الإمام سلطانًا بخطة واحدة، لكنه صنع ما هو أبقي من ذلك؛ صنع وعيًا. فالسلطة تستطيع أن تخضع الأجساد، لكنها تعجز عن إخضاع العقول إذا استيقظت.

ولهذا لم يكن الإمام يبنّي رد فعل عاطفيًا، بل كان يبنّي بصيرة. فالقرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَغْلَفُونَ وَالَّذِينَ لَا يَغْلَفُونَ﴾ (الزمر: ٩).

وما بدأه الإمام كان تحريرًا للعقول قبل أن يكون مواجهةً للسلطة.

ومن هنا نفهم أن أعظم الانتصارات ليست دائمًا تلك التي تتحقق في ساحات القتال، بل تلك التي تغتفر الإنسان نفسه. فالدّم حفظ كربلاء يوم عاشوراء، أما الكلمة الصادقة فقد حفظتها عبر القرون.

لقد انتصر السيف ساعات، أما الحقيقة التي حملها الإمام زين العابدين عليه السلام فقد بقيت حية إلى يومنا هذا.

فإذا كان الإمام زين العابدين عليه السلام قد أعاد للأمة وعيها بالحقيقة، فكيف حافظ على هذا الوعي في زمن كانت الكلمة فيه مراقبة، والقلوب يملؤها الخوف؟ وكيف تحولت المناجاة والدعاء، في يديه، إلى مشروع تروى أعاد بناء الإنسان من الداخل، حتى أصبحت الصحافة السجادية مدرسة صنعت أجيالًا؟

ذلك ما نأمله في المقالة القادمة، بإذن الله.

## هل أخطأ فرويد في فهم وظيفة العبادة؟

سيؤدّي إلى كارثة أو خطر ما، مع أنّه لا يملك تفسيراً عقلانيّاً لذلك، أما المؤمن فإنّه يمارس شعائره عن وعي واختيار، ويفهم الغاية منها، ويعتبرها جزءاً من مشروع أخلاقي وروحي متكامل.

ومن هنا يمكن فهم الخلل في المقولة المنسوبة لفرويد، فهو لم ينطلق من دراسة موضوعيّة للذين بقدر ما انطلق من افتراض فلسفيّ مسبق يرى أنّ الإنسان محكومٌ أساساً برغباته ومخاوفه اللاواعية، ثمّ حاول تفسير الدّين في ضوء هذا الافتراض؛ ولذلك تعامل مع الدّين بوصفه امتداداً نفسيّاً لحاجة الإنسان إلى الأمان والحماية، لا بوصفه استجابةً لإحتمال وجود حقيقةٍ متعاليةٍ خارج الإنسان.

ثمّ إنّ تاريخ علم النّفس نفسه لا يساعد كثيراً على قبول هذه الدّعوى بوصفها

تعيد الإنسان إلى المعاني الكبرى التي تجمع البشر أمام الله.

ومن هنا فإنّ تكرار الشعائر ليس عيباً فيها، بل هو سرّ فاعليّتها. فالإنسان لا تتغيّر شخصيّته بفكرةٍ يسمّعها مرّةً واحدةً، وإنّما تتغيّر بالممارسة المستمرّة؛ ولذلك نجد أنّ القرآن نفسه يتحدّث عن الذكر الدائم والصلاة المستمرة والتلاوة المتكرّرة؛ لأنّ بناء الإنسان يحتاج إلى التكرار تماماً كما يحتاج الجسد إلى الطعام المتكرّر والرياضة المتكرّرة.

بعد فهم هذه الحقيقة، يصبح تشبيه الشعائر الدّينية بالوسواس القهريّ تشبيهاً مضللاً؛ لأنّه يخلط بين نوعين مختلفين تماماً من السلوك. فالمريض بالوسواس القهريّ يقوم بأفعال متكرّرة تحت ضغط نفسيّ لا يستطيع مقاومته، ويعتقد أنّ تركها

الأفكار والمشاعر والعادات والسلوكيّات المتكرّرة. ولهذا فإنّ جميع المشاريع التربويّة في العالم، سواء كانت دينيّة أو أخلاقيّة أو وطنيّة أو حتّى رياضيّة، لا تكتفي بتعليم المبادئ نظريّاً، بل تحرص على تحويلها إلى ممارساتٍ متكرّرة حتّى تصبح جزءاً من بنية الإنسان الداخليّة.

فالشعائر في الرّؤية الدّينيّة هي وسائل تربويّة تهدف إلى إعادة تشكيل وعي الإنسان وربطه بالقيم التي يؤمن بها، فالصلاة ليست حركاتٍ جسديّةً متكرّرة، بل عمليّة استحضار يوميّةٍ لمعنى العبوديّة والمسؤوليّة والحضور الإلهيّ في الحياة، والصوم ليس امتناعاً آليّاً عن الطعام والشراب، بل تدريبٍ عمليّ على ضبط الرغبات وتقوية الإرادة. والحجّ ليس رحلةً طقوسيّةً غامضةً، بل تجربةً روجيّةً واجتماعيّةً



أسئلة وردود

### ■ السؤال:

يقول فرويد: الطقوس الدّينيّة في جوهرها ليست سوى تكرارٍ عصبيّ يشبه إلى حدّ مذهل الأفعال القهريّة التي يقوم بها المريض النّفسيّ لتهذئة قلقه الداخلي. في المجتمعات البدائيّة، كانت الطقوس الوثنيّة وسيلةً سحريةً لا للسيطرة على الطبيعة الخارجيّة..

### ■ الإجابة:

إنّ النظر إلى الشعائر الدّينيّة بوصفها مجرد تكرار آليّ يكشف عن سوء فهم لوظيفتها الحقيقيّة في حياة الإنسان، فالإنسان ليس كائنًا عقليّاً محضاً يعيش بالأفكار المجردة، بل هو كائنٌ تتشكّل شخصيّته من



نافذة على المقالات

في مقالة فكرية لافتة، يعيد الكاتب نواف الموسوي النظر في الصورة الشائعة عن الفيلسوف صدر الدين الشيرازي، المعروف بالملأ صدرا، والتي تقدّمه عادة بوصفه مجرد جامع متأخر لتراث ابن سينا والسهوردي وابن عربي والكلام الإمامي والتصوف. يرى الكاتب أن هذه الصورة، وإن بدت منطقية بسبب كثرة الاقتباسات واستمرار المصطلحات القديمة في كتابات الملا صدرا، تخفي حقيقة أعمق: فمشروعه الفلسفي المعروف بـ"الحكمة المتعالية" لم يكن استمراراً لما سبقه، بل إعادة تأسيس كاملة لموضوع الفلسفة ذاته. يشرح الموسوي أن جوهر هذه "القطيعة الهادئة" لا يكمن في رفض الملا صدرا

## الملا صدرا والقطيعة الهادئة:

### كيف افتتحت الحكمة المتعالية فلسفة جديدة داخل لغة الفلسفة الإسلامية؟

■ الكاتب: نواف الموسوي



وتتكامل تدريجياً نحو مرتبة روحانية أرقى. يعقد الكاتب مقارنات دقيقة بين الملا صدرا وأسلافه: فقارنّة بآبن سينا، يظهر الملا صدرا أقرب إلى فيلسوف للصيرورة لا للثبات؛ ومقارنّة بالسهوردي، يحوّل رمزية النور إلى لغة وجودية بحتة؛ فيصفها أما علاقته بآبن عربي، فيصفها الموسوي بأنها لم تكن مجرد "فلسفة للعرفان"، بل إعادة إنتاج لمعاني وحدة الوجود داخل برهان أنطولوجي متكامل. ويستشهد الكاتب بالمفكر سيد حسين نصر الذي وصف الحكمة المتعالية بأنها بناء فلسفي يجعل من علم الوجود حجر الأساس لكل مشروع الملا صدرا الفكري.

يختم الموسوي مقالته بخلاصة مركزية: أن الملا صدرا لم يضيف فضلاً أثيراً إلى كتاب الفلسفة الإسلامية، بل افتتحت فصلاً جديداً داخل

أي أن الوجود واحد في حقيقته لكنه متفاوت في مراتبه، ما يفسر تنوع العالم من دون اللجوء إلى تعدد الماهيات المستقلة. أما المحور الثالث والأكثر جذرية، بحسب الموسوي، فهو نظرية "الحركة الجوهرية"، التي تقول إن الحركة لا تقتصر على الأغراض الخارجية للأشياء كما في الفلسفة الأرسطية، بل تخترق جوهر الموجود ذاته، فيغدو العالم الطبيعي في حالة تجدد وصيرورة دائمة بدلاً من الثبات. ويرافق ذلك تحوّل في نظرية المعرفة، حيث تصبح المعرفة عند الملا صدرا نوعاً من الوجود لا مجرد انعكاس ذهني، ليصل الكاتب إلى المحور الخامس المتعلق بالنفس الإنسانية، التي وصفها الملا صدرا بأنها "جسمانيّة الحدوث روحانيّة البقاء"، أي أنها تبدأ من المادة

لأسلافه، بل في أنه أعاد توظيف المفاهيم الفلسفية القديمة نفسها - كالجوهر والوجود والماهية والنفس - لتؤدّي وظائف جديدة تماماً داخل نسق مختلف جذرياً. فبينما كانت الفلسفة الإسلامية قبله تقوم على الماهية والثبات، حوّلها الملا صدرا إلى فلسفة قائمة على الوجود والحركة والصيرورة. يفضل الكاتب أبرز ملامح هذا التحول عبر خمسة محاور رئيسية. أولها انقلاب العلاقة بين الوجود والماهية: فبعدما كانت الماهية عند ابن سينا مركز التحليل الفلسفي، جعل الملا صدرا الوجود هو الحقيقة العينية الأصلية، مستنداً في ذلك - كما يشير الكاتب نقلاً عن موسوعة ستانفورد للفلسفة - إلى ما يُعدّ منعطفاً بارزاً في تاريخ الميتافيزيقا الإسلامية. ثانيها فكرة "التشكيك في الوجود"،

## لماذا لا بدّ من تخليد ذكرى عاشوراء؟

فطريّة موجودة في أعماق جميع الناس، وهي تدفعهم للاعتراف بحق من أسدى إليهم خدمة وشكرهم عليها، وأن يتذكروها ويحترموا ذكراها.

وإضافة إلى هذا، فإن إحياء الشخصيات البارزة، ويتم هذا الأمر حسب واحدة من أقدم الرغبات الفطرية التي أودعها الله سبحانه في أعماق جميع الناس، ويميّز عنها إحس الشكر والاعتراف بحق الآخرين. ومن هنا فهناك رغبات

بدر حسانيس في تحرير مهمهم من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة وقد أصبحوا أبطالاً وطنيين.

إن جميع العقلاء في العالم يحبون ذكريات مثل هذه الشخصيات البارزة، ويتم هذا الأمر حسب واحدة من أقدم الرغبات الفطرية التي أودعها الله سبحانه في أعماق جميع الناس، ويميّز عنها إحس الشكر والاعتراف بحق الآخرين. ومن هنا فهناك رغبات

فإن إعادة النظر إليها وإعادة صياغتها يمكن أن تنال شيئاً من تلك البركات.

وعلاوة على ذلك، فقد اعتادت المجتمعات البشريّة على أن تقوم بإحياء حوادث الماضي بشكل من الأشكال، وأن تكبرها وتضفي عليها ألواناً من الاحترام والتقدير، سواء أكانت متعلقة بأشخاص كان لهم دور مؤثّر في رقيّ مجتمعاتهم كالعلماء والمكتشفين، أم كانت متعلقة بأشخاص تميّزوا

## الفلسفة المضافة

الأخلاق فليست علم الأخلاق نفسه، بل هي معرفة تبحث علم الأخلاق بنظرة فلسفية. وبالمثل، فإن فيلسوف الحقوق لا يدخل في عملية الاستنباط الحقوقي، بل يُعرّف الحقوق من الخارج، ويتتبع مصادرها، ويصنّف مسائلها؛ كما أن فيلسوف الفقه لا يقوم بعمل المجتهد، بل يحلّ المجالات التي دخل فيها الفقهاء والمجالات التي

أو تاريخي، ومن موقع "فوقي" أو متجاوز (خارج عن الموضوع نفسه)، عبر التحليل والوصف وأحياناً التعريف، دون أن تتولى هي نفسها ممارسة ذلك العلم. والنقطة المحورية هنا هي التمييز بين العلم الفلسفي وفلسفة ذلك العلم. فمثلاً، الأخلاق الفلسفية هي نوع من علم الأخلاق يقوم على أسس فلسفية، أما فلسفة

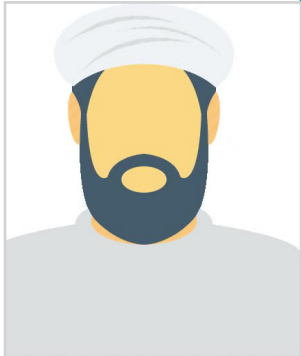


مصطلح الأسبوع

يُفصّد بالفلسفات المضافة (أو الفلسفات من الدرجة الثانية) تلك المعارف الناشئة من ارتباط الفلسفة بعلوم وحقول معرفية أخرى، مثل فلسفة الفن، وفلسفة العلم، وفلسفة الأخلاق، وفلسفة الدين، وفلسفة الفقه، وفلسفة الحقوق. وتتناول هذه الفلسفات موضوعها (المضاف إليه) بمنهج عقلي

## علماء وأعلام

### آيت الله محمدعلي معصومي البهبهاني



#### ■ ولادته ونسبه

وُلِدَ محمد علي بن الشيخ سليمان البهبهاني المعصومي في سنة ١٢٨٨ للهجرة (القمريّة) في ديلم، وبعد فترة انتقل مع والده من ميناء ديلم إلى بيهان. كان والده آية الله الشيخ سليمان المعصومي (توفي سنة ١٣٢٠ هـ) من كبار العلماء والمجتهدين الشيعة في أوائل القرن الماضي في محافظة خوزستان، ومن تلامذة الشيخ الأنصاري رحمته الله.

#### ■ دراسته وأساتذته

أقبل محمد علي المعصومي منذ بداية حياته على التحصيل العلمي والديني. فأكمل دراسة السطوح عند والده وعند كل من المرحوم آقا ميرزا حسن والأخوند الملا محمد تقي البهبهاني، ونال درجة الاجتهاد في سن الثلاثين. وفي سنة ١٣١٨ هـ توجه إلى النجف الأشرف. وقد استفاد سنين طويلة من مجالس كبار الآيات: محمد فاضل الشربيني رحمته الله، والشيخ هادي الطهراني رحمته الله، والأخوند الخراساني رحمته الله، والسيد محمد كاظم اليزدي رحمته الله، وقد صدّقوا جميعاً على منزلته في الاجتهاد.

#### ■ نشاطاته الدينية والاجتماعية

بعد وفاة الشيخ هادي الطهراني، رجع آية الله المعصومي من النجف الأشرف إلى بيهان، وأقبل على التدريس ونشر الدين، حتى سنة ١٣٢٠ هـ حيث انتقل والده إلى رحمة الله، فتولى المعصومي مباشرة مكانه في أداء المهام الدينية.

كان من العلماء والمراجع في بيهان، وعلى رأس المجاهدين في تلك المحافظة، حيث إنه في زمن الحرب العالمية، وبعد أن أصدر آية الله السيد محمد كاظم اليزدي رحمته الله فتوى الجهاد والدفاع عن البلاد الإسلامية، ارتدى المعصومي ثياب الحرب ودافع مدة طويلة مع الناس عن حوزة الإسلام ووطنه. لسنوات عديدة كان ملجأً للناس في بيهان، مجتهداً في نشر المذهب الشيعي والخدمات الشعبية.

#### ■ مؤلفاته

قواعد الإمامية، مناسك الحج، أنيس المهموم، حاشية على جواهر الكلام، حاشية على شرح اللمعة، وغيرها.

#### ■ وفاته

توفي المرحوم آية الله محمد علي المعصومي بعد عمر حافل بخدمة الإسلام والمسلمين، وذلك في الخامس من صفر سنة ١٣٧٢ هـ (الموافق ١٣١٢ ش) عن عمر ناهز الرابعة والثمانين في بيهان، وذفن بجوار قبر والده آية الله الشيخ سليمان المعصومي.

المصدر: موقع دانتشنامه إسلامي